الباب الثانى

إفريقيا بين التنصير والتهجير

● **الفصل الأول**

أولاً: أفريقيا قبل الإسلام.

ثانيًا: المسيحية فى إفريقيا.

ثالثًا: الإستعمار فى إفريقيا.

رابعًا: الإستعمار وأدواته.

خامسًا: القلاع الأضادية.

● **الفصل الثانى**

أولاً: إفريقيا فى المزاد العَلنى.

ثانيًا: الأفارقة فى شباك التنصير.

ثالثًا: الأسلاب الإفريقية أثناء العصر الأسود.

رابعًا: القوى الثورية والخدعة الأمريكية.

خامسًا: الجغرافية الإسلامية فى إفريقيا.

● **الفصل الثالث**

أولاً: فضل الحضارة الإسلامية فى المدنية الأوروبية.

ثانيًا: خَطر اسمه الإسلام.

ثالثًا: انهيار الخلافة الإسلامية.

رابعًا: الصليبية بين الشرقين – الأقصى، والأوسط.

خامسًا: العبور الصليبى إلى آسيا.

obeikandl.com

obeikandl.com

الفصل الأول

أولاً : إفريقيا قبل الإسلام

كانت الوثنية هى الإعتقاد السائد عند الأفارقة قبل دخول الإسلام إلى أراضى الأفارقة الذين فرقتهم القبلية التى تعد بمثابة العدو الظاهر رقم واحد للإستقرار والتجمع والمدنية، وذلك لأن هذه القبائل كانت كثيرة الترحال والإنتقال، ومن ثم كان لا يمكن أن تكون لها مواطن ثابتة.

والملاحظ أنه عندما تسود القبلية – تسود القوة، ويسيطر قانون الغاب بسبب الصراع على مواطن الكلأ وعيون المياه ومناطق النفوذ، ولك أن تتخيل إفريقيا تحت تأثير هذه الظروف، وكيف أنها لم تعرف الطريق نحو التقدم والرقى إلا بفضل الهجرات العربية المبكرة، والهجرات الإسلامية التى وفدت تباعا.

ولذلك فإنه لا يمكن الخوض فى إقتحام الإسلام وآثاره فى إفريقيا إلا من خلال النور الذى يضئ الظلمات، ويأخذ بالناس من قاع التخلف إلى ذروة التحضر، وكذلك من خلال منظور دستورى محض باعتباره التشريع الإلهى الذى يضع القوانين العامة للأخلاق والاجتماع والسياسة والاقتصاد للفرد والمجتمع والدولة فى إطار الدين والدنيا، وبفضل الدين الإسلامى قامت على الأراضى الإفريقية دول وممالك إسلامية متعددة.

وقد انتشر الإسلام بسرعة كبيرة فى الداخل الإفريقى حتى أن خريطة إفريقيا تغيرت تغيراً كبيرا بفضل الإسلام خلال القرون الماضية، ولا زال الإسلام يلقى بإشعاعاته على الكثير من أوجه الحياة على سطح القارة.

وعمليا فإن إفريقيا هى القارة المسلمة بين قارات العالم حيث يدين معظم سكانها بالدين الإسلامى، وتتراوح نسبة المسلمين إلى غيرهم من أتباع الديانات الأخرى حوالى ٧٠ : ٧٥٪ من إجمالى تعداد سكان القارة.

وقد أقر على هذا شاهدٌ كاتب مسيحى حكم بنفسه المستعمرات الفرنسية بإفريقيا مدة طويلة ووقع على عينه انتشار الإسلام فى ربوع القارة السمراء فقال، (ولم يقفْ حاجزٌ مّا بإفريقيا أمام زحف الإسلام فقد انتشر بالشمال فى وقت مبكر ثم تخطى الصحراء، وزحف خلفها، وعبر من الجزيرة العربية الساحل الشرقى منذ عصره الأول، وتخطى هذا الساحل إلى المناطق الداخلية إلى كينيا، وتنزانيا (تنجانيقا)، واقتحم نطاق الغابات فى قلب إفريقيا، ونفذ إلى هضبة البحيرات، وتدفق إلى الهضبة

الحبشية، وانتشر على طول الساحل الغربى، ودخل جنوب إفريقيا مع المهاجرين والمسلمين من أبناء شبه القارة الهندية وماليزيا، ولا زال ينتشر حتى اليوم إلى آفاق جديدة[1]).

وأضاف الكاتب فى كتابه فى معرض حديثه عن انتشار الإسلام فى إفريقيا فقال:

إن انتشار دعوة الإسلام بإفريقيا لم تقم على القسر، وإنما قامت على الإقناع الذى كان يقوم به دعاة متفرقُون لا يملكون حولا ولا طولا إلا إيمانهم العميق بدينهم، وكثيرا ما انتشر الإسلام بالتسرب السلمى البطئ من قوم إلى قوم، فكان إذا ما اعتنقه الأرستقراطية، وهى هدف الدعاة الأول تبعتها بقية القبيلة، وقد يسر انتشار الإسلام أمرٌ آخر – هو أنه دين فطرة بطبيعته، سهل التناول، لا لبس ولا تعقيد فى مبادئه، سهل التكييف والتطبيق فى مختلف الظروف، ووسائل الإنتساب إليه أيسر وأيسر، إذْ لا يُطلب من الشخص الإعلان عن إسلامه سوى النطق بالشهادتين حتى يصبح فى عداد المسلمين وقد حبب الإسلام إلى الإفريقيين مظاهره الجميلة البعيدة عن التكلف، مثل الثوب الفضفاض، والمسبحة، والكتابة بالعربية، والوقار الدينى، وشعائر الصلاة، مما يضفى على المسلم مكانة مرموقة وجاذبية ساحرة، فالذى يدخل الإسلام يشعر بأنه أصبح ذا شخصية محترمة، وأنه قد ازداد من القوة والحيوية.

ذلك هو الإسلام دين الحق والطريق المستقيم بحيويته المدهشة، وعبقريته الفذة، وحكمته الرائدة الخلاقة، وقد شهد له بنو جلدهم، وإخوة دينهم بأنه الدين الذى انتشر بواسطة الدعوة التى تكتسب إلى قوتها قوةَ أتباعها بحيث إذا هبت حركة الرياح الإسلامية أحدثت بالضرورة تغييرات جوهرية فى الأنظمة القائمة والعقائد الكائنة، ليرحل نظام وثنى أو مسيحى – ويحل محله الدين الإسلامى.

وقد ساعدت مجموعة من العوامل على انتشار الإسلام فى مناطق الجوار الثلاث أفريقيا، وآسيا، وأوروبا. انتشاراً غير مسبوق لديانة أخرى. من أهمها:

١– العقيدة الأخلاقية الصحيحة؛ وهى ما تعتبر تفوقًا تاما فكريا وخُلقيا للمسلمين بحيث صاروا نماذج يُقتدى بها إعمالا لقوله تعالى: ﴿ **كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ** ﴾

[آل عمران: ١١٠]

---

(١) الديانات فى إفريقيا السوداء ص١٥٢، ١٥٣ هو بير ديشان.

٢- اعتدال المنهج الإسلامى ليصبح مقبولاً ثم مرغوبًا من العامة لقوله تعالى: ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ [البقرة : ١٤٣].

٣- صيانة المجتمع والإنسانية بضمان المساواة بينهم فى الحقوق والواجبات لما قال الرسول ﷺ : (الناس سواسية كأسنان المشط).

٤- موقف الإسلام الرافض، والناهى بالكلية عن التجارة فى الجنس البشرى (الرِّق) لقوله ﷺ : « شر الناس من باع الناس »، ومحاربة الإسلام للتمييز العنصرى (لا فضل لعربى على أعجمى ، ولا لأبيض على أسمر ولا لأحمر على أبيض إلا بالتقوى)[١] وهو ما يعنى رفض التمييز العنصري والطبقى بين بنى البشر بسبب اللون أو الجنس أو اللغة، فالكل فى حق الحياة سواء. وهو ما أقره القرآن الكريم حين قوله تعالى: ﴿ كُلاًّ نُمِدُّ هَؤُلاءِ وَهَؤُلاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴾[الإسراء: ٢٠] .

٥- قدرة الإسلام الخلاقة والقائدة: كونه أصبح فكرًا محليًا يتطابق بالتمام مع الثقافة القومية لمجموع بنى الأمية فى قارات العالم المختلفة.

٦- انحطاط القساوسة، وانحدار الحياة الروحية بالكنائس، وهو ما يرويه الكتاب المسيحيون من أن الحياة الروحية فى أكثر الكنائس كانت قد انحدرت إلى أقصى دركات الإنحطاط، وأن كثيرا من المسيحيين الأفارقة وقعوا فيما وقع فيه رجال الكنيسة من أخطاء، وكانت الكنائس المسيحية المتنافسة مشغولة بالنزاعات البينيّة بما لم يمكنها من مواجهة الإسلام، وانزلق بعض القساوسه (القُسس) فاشتغلوا بتجارة الرقيق أو أخذوا إتاوات من النخاسين وظل الحال هكذا حتى جاء العصر الحديث وفيه جاءت المسيحية إلى إفريقيا.

* * *

ثانيًا : المسيحية فى إفريقيا

اتجه الأوروبيون باتجاه إفريقيا فى العصر الحديث لسببين جوهريين:

الأول : مشاغلة العرب والمسلمين فى ديارهم وداخل أوطانهم بقضاياهم الداخلية، وتهديد أمنهم، وتعريض سلامة أوطانهم للخَطر، وطعنا فى دينهم، ورميهم بالعديد من المؤامرات والمكائد التى تُنهك قواهم، وتدحر إمكانياتهم، وتلتهم

(١) ورد الحديث فى غير رواية واحدة .

مواردهم، من خلال إثارة الفتن والمشكلات تحت دعاوى الديمقراطية التى يروجون لها من خلال شعارهم الزائف (الحرية، الإخاء، المساواة) ، ثم يكون التطويع فالتطوير الذى ينتهى بالإحتلال العسكرى السافر للأقطار الإسلامية، بعد أن رفع العرب جميعًا والمسلمون معهم شعار القُطْرية والتحللية، وصاروا دولاً أو دوليات لها قياداتها المحلية، وطموحاتها الخارجية التى تَبنى عليها مصالحها، وتخطط لغدها فى إطار سياسة القُطرية الفردية التى صنعها الإستعمار وذكاها واستعمل لأجلها الكثير من أبناء ديننا وإخوة أوطاننا التى تحكمها الأهواء والأمزجة بعد أن تعطل العمل بالقاعدة الدستورية للحضارة الإسلامية (القرآن الكريم) والسنة النبوية المطهرة.

ذلك التعطيل العمد المردود حدوثه إلى عطب النفس الإنسانية هو أمل كل الغرب فى القضاء على أى أمل يجمع الشعب العربى القائد بطبيعته، والإسلامى المغوار المجاهد بسجيته فى وحدة واحدة تحت قيادة واحدة تعود بالعرب والمسلمين إلى زمن الإزدهار والتقدم والريادة، والسبق إلى السيادة، والقفز على أكتاف التاريخ لإعادة كتابة التاريخ الإسلامى بأحرف من نور تضئ للعالم ظلماته وتبعث فى لياليه اشعاعات الفكر والمدنيّة والحضارة فى شتى المجالات ومختلف فروع العلم والمعرفة، وذلك لأن الغرب يرى أن فى هذه الصحوة أو النهضة خطرا داهما يحدق على حياتهم، ويطبق على أوطانهم، ويقف على ديارهم فيهدد مدنيتهم الزائفة التى صعدت بهم إلى هاوية الرزيلة، وقد جعلتهم على شفا الإنهيار التام.

وهذا ما عبر عنه رئيس الوزراء البرتغالى الأسبق (سالازار) فى مؤتمر صحفى بقوله: (إن الخطر الحقيقى على حضارتنا هو الذى يمكن أن يحدثه المسلمون حين يغيُّرون العالم)[1].

وها هو فيليب فونداسى يصرح فى كتابه: الإستعمار الفرنسى فى إفريقيا السوداء فيقول (إن من الضرورى لفرنسا أن تقاوم الإسلام فى هذا العالم وأن تُنتج سياسة عدائية للإسلام وأن تُحاول على الأقل إيقاف إنتشاره)[2].

كما قال كذلك (مورو بيرجر) فى كتابه (العالم العربى المعاصر): «إن الخوف من العرب واهتمامنا باللغة العربية ليس ناتجا عن وجود البترول بغزارة عند العرب بل بسبب الإسلام للحيلولة دون وحدة العرب التى تؤدى إلى قوتهم لأن قوة العرب تتصاحب دائمًا مع قوة الإسلام وعزته وانتشاره».

---

(١) قادة الغرب يقولون: دمروا الإسلام أبيدوا أهله ص٣٦ .
(٢) المصدر السابق.

وهذا قول لورانس براون فى معرض جديثه عن الإسلام وخطره: «لكننا وجدنا أن الخطر الحقيقى علينا موجود فى الإسلام وفى قدرته على التوسع والإخضاع فى حيويته المدهشة»[١].

وقد قال جلادستون رئيس وزراء بريطانيا السابق «ما دام هذا القرآن موجود فى أيدى المسلمين فلن تستطيع أوروبا السيطرة على الشرق»[٢]:

الثانى: هو أن أوروبا تعتبر نفسها قلعة المسيحية فى العالم، وهى تقع فى مواجهة إفريقيا الشمالية جنوب المتوسط، وجزء كبير من آسيا حيث القلعة الإسلامية، وقد اقتحم المسلمون أوروبا من طرفيها (الغربى) فى العهد الأموى، حيث ضم أسبانيا وزحف إلى فرنسا، و(الشرقى) حيث سقطت عاصمة البيزنطيين (القسطنطينية بأيدى العثمانيين) وبسطوا نفوذهم على دول الشرق الأوروبى وأخذوا ينشرون رسالتهم الإسلامية.

ومن هنا اتّجَهَت المسيحية لإقتحام إفريقيا وآسيا للثار من اقتحام المسلمين لأوروبا، ولعل هذا الاتجاه الفكرى هو مدعاة استجابة البابا (أوربان الثانى) لطلب الإمبراطور البيزنطى بتقديم العون الأوربى فى طرد السلاجقة من آسيا الصغرى وعاصمتها الأناضول، وقد ألقى البابا فى نوفمبر عام ١٠٩٥م خطابه الشهير الذى حث فيه المسيحيين على المسارعة بنجدة الإمبراطور، ودعاهم إلى استخلاص القبر المقدس – أى (القدس) من أيدى المسلمين – وهذه – كانت نقطة البداية لكل تاريخ الحروب الصليبية، وقد وصلت طلائع الصليبيين إلى الديار العربية فى مطلع عام ١٠٩٦م، وفى ١٠٩٩/٦/٧ حاصر أربعون ألفا من الصليبين بقيادة (جود فرى البويونى) بيت المقدس، والحامية المصرية الفاطمية تصمد لمدة خمسة شهور، بينما فى ٧/٥ من العام ذاته تمكن الصليبيون من فتح ثغرة فى السور الشمالى، وأخذوا يتدفقون على بيت المقدس، ويرتكبون واحدة من أبشع مذابح التاريخ فى المسجد الأقصى، حيث قتلوا فى ساحته سبعين الف مدنى[٣].

وفى سنة ١١٠١م ثأرت الجيوش الإسلامية (سلاجقة الروم، سلاجقة حلب، الدنشمنديون فى كيادوكيا) حيث سحقوا ثلاث حملات صليبية فى اغسطس وسبتمبر (اللومباردية، الفرنسية، الفرنسية الإلمانيّة) وقتلوا ربع مليون جندى صليبى، واستمرت الأوضاع إلى أجل.

---

(١) تبصير الأذهان ببعض المذاهب والأديان ص ١١ .

(٢) تبصير الأذهان ببعض المذاهب والأديان ص ٧ .

(٣) موجز تاريخ العالم ص١٠٢ .

عمومًا فقد اتجهت الكنيسة الأوروبية إلى إفريقيا، وأصبح لها أتباع كثيرين بفضل جمعيات التبشير الأوروبية التى لم تكل عن العمل لاستقطاب أتباع للمسيحية فى القارة السمراء لينوبوا عنهم فى مشاغلة المسلمين وقتلهم واستنزافهم.

إلا أن القساوسة الوافدون إلى إفريقيا كانت لهم اتجاهات غير مرضية وقاسية ضد الوطنيين، وأصابت بالضَرَر عن قصد أو عن غير قصد التقاليد الإفريقية المتأصلة فى أبناء القارة.

وجاء رد الفعْل الإفريقى الرافض لممارسات القساوسة الأوروبيين، حيث قام الزعيم الإفريقى المَسيحى (كاچيا) الكينى الأصل بتأسيس كنائس إفريقية تخلصًا مما يعرف بالمسيحية الأوروبية التى أطلق عليها الدين الأجنبى، وقد وضع الرجل لكنائسه الأسس التالية :

١- أن تكون إفريقيا خالصة مستقلة تمامًا من السيطرة الأوروبية .

٢- تطهير الكنيسة من الرجس الأوروبى الذى قدم للإفريقيين على أنه جزء من التعاليم الدينيّة.

٣- إلغاء جميع الأسماء الأجنبية والعودة إلى الأسماء الإفريقية.

٤- احترام التقاليد الإفريقية.

٥- الدعوة إلى انتشار هذه الكنائس فى كل إفريقيا.

وسرعان ما انتشرت هذه الكنائس حيثما وُجد المسيحيون، والتحق بها الأفارقة أفواجا، وهُدِّدت الكنائس الأوروبية التى لم تكن تهتم بنشر المسيحية بمقدار اهتمامها بخدمة الاستعمار، فاستعانت الكنائس الأوروبية بالقوة البريطانية فى كينيا، وراحت هذه القوة تلاحق KAGG IA (كاچيا) وأتباعه، وألقت بالكثيرين منهم فى السجن، وحاربت الكنائس الإفريقية حربًا طويلة - حيث كان فى نظر بريطانيا ضياع المسيحية أيسر من مسيحية تأخذ الطابع الإفريقى أى (مسيحية لا تخدم الاستعمار)[١].

وقد فطنت مصر مبكرا إلى هذا الدور الصليبى الإستعمارى، وعملت على مواجهته بطريقة أو بأخرى حتى انساب الإسلام عبر مصر إلى الجنوب، ولما توجهت الحملات العسكرية لتأكيد السيطرة الإسلامية على مداخل الوسط الإفريقى ابتداء من السودان، وقّع الجنوبيون معاهدة صلح مع المصريين عرفت باسم (معاهدة القبط) وهى معاهدة للتبادل التجارى والاقتصادى بين الشمال والجنوب، وقد ظلت هذه المعاهدة سارية كأساس للتعامل بين شمال الوادى وجنوبه حتى عهد المماليك، إلى أن بدأ ملوك

---

(١) التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية ص٤٥ ج٦ .

«مقرة» يتمردون على هذه المعاهدة كما قدموا العون والمساعدة للصليبيين أبناء دينهم فى حروبهم ضد مصر، ولهذا اقتحم الظاهر بيبرس مملكة مقرة، وانتصر على ملوكها وأصبح له حق تعيين مَن يراه مِنَ الملوك، ونما سلطان المماليك فى عهد السلاطين بعد بيبرس(١).

وفى هذه الأثناء تدفقت الهجرات العربية فى موجات متتابعة ودون انقطاع على هذه المنطقة، وقوى نفوذ العرب، وتكاثر عددهم، وسقطت بذلك قلاع المسيحيين فى الشرق، وأصبح الدم العربى غالبًا فأقاموا سلطان القبائل على نحو ما عرفوه فى الجزيرة العربية. مما أدى إلى تطوير الصراع من مجرد التبشير بالمسيحية إلى الحملات الإستعمارية المباشرة.

* * *

ثالثًا : الإستعمار فى إفريقيا

ما أن بات الدم العربى غالبًا فى إفريقيا نتيجة لتدفق الهجْرات العربية إليها والتى بفضلها سقطت قلاع المسيحية فى إفريقيا، حتى وقف الإستعمار موقفًا عدائيًا مناهضًا وبشدة للإسلام والمسلمين حين التقيا فى القارة السمراء، تقوده إلى ذلك مجموعة من العوامل المؤثرة من أهمها:

- أن الإسلام يصنَع أمة واحدة، ذات هدف واحد، وقيمة واحدة، وأحكام واحدة، ولغة واحدة. تَسير على درب واحد تَبسُط سلطانها على معظم بقاع الأرض.
- أن الإسلام ينفُث(٢) فى نفوس أتباعه وعقولهم كبارا وصغارا، رجالاً ونساءً روح الأُستاذية والقيادة ويؤهلها بجميع المؤهلات، ويُمَكِّنُها من قيادة العالم بفضل مؤهلات العدل ومحاربة الظلم والجريمة والفساد.
- أن الإسلام يُعِدُّ أبناءه من القادة إعدادا مغايرا لما يُريدُه به هؤلاء – فهم القادة الرجال الذين إن مُكِّنوا فى الأرض (أقاموا الصلاة، وآتوا الزكوة، ولم يخشوا إلا الله) لذا ترى المجرمين من الغرب وأعوانهم يسعون بلا ملل، ويجدون بلا كلل إلى أن يفرضوا على المسلمين حكاما يكون ولاؤهم كله لهم حتى يجلبوا لأنفسهم وأمّتهم العار والخزى والهوان.

---

(١) المواعظ والاعتبار ج١ ص١٩٣ – المقريزى.

(٢) نَفَثَ – نُفْثًا، ونَفَثَانا: نَفَخَ. و– نَفَثَ الشيءَ من فيه: رمى به. و– نَفَثَ فُلانًا سَحَرَه – فهو نَافِثٌ، ونَفَّاثٌ. وهَى نَافِثَةٌ. وجمع النَّافِثَة: نَوافِث والنُّفَاثَةُ: ما يَنْفُثُه المصدُورُ من فِيهِ.

● الإسلام يربى فى نفوس أتباعه عقيدة الجهاد، ويحرم عليهم الأخذ بأسباب الراحة، والخلود إلى الركون – فهو بذلك حقًا الدين الذى يوحد أتباعه ويضم صفوفهم كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضا، فلا يكونون مطمعا لطامع، ولا منفذًا لعدو، ويجعل منهم أناسًا يتنافسون على الموت فى سبيل الله، ويحرصون عليه كأغلى أمانيّهم وأسمى مطالبهم وأشرف آمالهم.

لذلك بات الإستعمار متأكدًا يقينًا من أن الإسلام هو أكبر عقبة فى سبيل استقراره، وضمان سيادته على العالم، لإخضاعه وإذلاله واستعباده، ليَتَيَسَّر له الإستيلاء على ثرواته ونهب خيراته ونسف مقدراته والتجارة فى أقواته، ولضمان إخضاعه وولائه.

وقد بات الكافرون ومن تَحَانحوهم فى حربهم ضد الإسلام مسالك شتى، ونهجوا مناهج عدة[1] تهدف كلها لتحقيق غاية مشتركة هى الحيلولة دون انتشاره، وتنصير أتباعه، وتحويل اهتمامات المسلمين إلى قضايا خِلافيّة أخرى أدق تركيبًا وأكثر تعقيدًا.

وقد اتخذ الإستعمار خطًا سياسيا واضحًا تجاه الإسلام فى إفريقيا، ولكن الإسلام تجاوز تلك العقبة، وحقق كثيرًا من الإنتصارات على الرغم من صعوبة الحرب المعلنة عليه، من ذلك مثلا ما قاله «هوبير ديشان» فى كتاب له «أن من صالح فرنسا استغلال زعماء القبائل الوثنية لأن الإعتماد على الجماعات ينطوى على خطر أكيد على المستعمر»[2].

وهو ذاته المسلك السياسى الذى سلكه قدامى المستعمرون اعتقادا على أن الذى يعتنق دينا يَعزُّ على آخر أن يحوله إلى دين آخر، أو أن يصرفه عنه بالكلية أما الذى لا يعتنق دينا يصير من السهولة بمقدار جَذْبه إلى اعتناق دين من الأدْيان.

لذلك اجتهد المستعمرون فى الوصول إلى بؤر التجمعات الإفريقية الوثنية، وتلك التى تؤمن بالخرافات والطواغيت من عبدة الطواهر الطبيعية، وأرواح الأجداد والآباء، والثعابين ... إلخ لإفساح المجال أمام إرساليات التبشير المسيحية فى الداخل الأفريقى، وقد نجَح هؤلاء فيما بعد فى إقامة بعض نقاط حيوية لهم خاصة بعد أن أتم [لفنجستون] استكشاف وسط إفريقيا سنة ١٨٥٤م[3].

---

(١) انظر المؤامرة الكبرى على العروبة والإسلام والإنسانية عبر مراحل التاريخ – للمؤلف.

(٢) نقلا عن الإسلام والوثنية فى السودان الفرنسى.

(٣) موجز تاريخ العالم ص ٢١٠.

ومن أجل العمل على إنْجَاح ذلك المخطط الإستعمارى ومن أجل استمرار مسيرته فى الخطِّ السياسى المرسوم سلفًا تجاه المسلمين قامت الدول الإستعمارية خاصة «بريطانيا» بإدخال أفواج هائلة من المهاجرين المعروفين بأنهم مسلمون، وهم من المذاهب التى رباها الإستعمار فى الهند لتقوم على خدمة مصالحه ورعاية شئونه فى إفريقيا، فاكتظت المستعمرات البريطانية بالتابعين من جماعات الإسماعيلية والأحمدية، حيث ذهب هؤلاء وهؤلاء يدعون للإسلام كما يطيب لكل فرقة ويحلوا لها، وسجل المؤرخون نشاطًا واسعًا وناجحًا فى المستعمرات الإنجليزية الواقعة بالشرق والجنوب والوسط الإفريقى.

بينما جاءت مشيئة الله جل وعلا على خلاف ما تشتهيه السفن الإنجليزية للسير وفق رغباتها وطموحاتها، حيث كانت النتيجة هى انتشار الإسلام فى هذه الربوع دون انحرافات، واعتنقه الأفارقة فى تلك المناطق، وارتضونه دينا فآمنوا به ودافُعوا عنه..

وقد عمل الإستعمار على نشر الإسلام وزيوعه بين أبناء القارة وإن كان قد وقع ذلك عن غير قصد منه.

حيث رأى الكثيرون من الأفارقة أن الإسلام هو وسيلتهم للجهاد ضد العدوان، وسبيلهم لنُصرة الحق على الباطل، ومن ثم فإن محاربة الإستعمار والكفاح ضده حتى الإستقلال هو واجب دينى مقدس، ومن هنا تَجَمَّع الأفارقة تحت لواء الإسلام، وتدفقوا عليه ليتوحدوا تحت لوائه فى مقاومة الإحتلال وطرده، وتطهير البلاد من أدناسه.

* * *

رابعًا : الإستعمار وأدواته

لا يختلف المعنى الدارج لهذه الكلمة عن مضمونها عند أهل اللغة وكذلك عند القانونيين.

فالإستعمار فى اللغة : من :

(استعْمَرَهُ) فى المكان: جعله يعمُره. وفى القرآن الكريم (هو أنشاكم من الأرض واستعمركم فيها).

(استْعْمَرَ) الأرضَ: أمدها بما يعوذها من الأيدى العاملة.

استعمرت دولةٌ دولة أخرى: فرضت عليها سيادتها واستغلتها[1].

وقد قدّم أهل القانون تفسيراً مبسطًا لمعنى الكلمة فى القانون الدولى: موجزه «قيام دولة قوية بضم دولة أخرى لأراضيها بعد قهر شعبها، ومصادرة إرادته ثم تباشر

(١) المعجم الوجيز : ص ٤٣٤ .

الدولة القوية على هذا الشعب صور السيادة والنفوذ والتسلط واستغلال الأرض والموارد والسكان لصالحها».

وقد انفردت إفريقيا بنصيب كبير ومتميز من الإستعمار الأجنبى لأراضيها دون غيرها من القارات الأخرى، وقد ترك لها بعد رحيله ميراثا كبيراً من التخلف والجوع والفقر.

ومن دون استثناء فإن كل الدول الإستعمارية فى العصر الحديث قد توافدت على القارة السليبة، حيث جاءت إليها أم الإستعمار (بريطانيا)، وفرنسا، وبلجيكا، والبرتغال، وأسبانيا، وألمانيا، وإيطاليا.

ومما يذكر المؤرخون ويشهد بصدقه الواقع أن ماساة الرق التى بدأها الإستعمار برعاية رجال الكنيسة؛ والتى بدأت من القرن الخامس عشر هى التى أضعفت الأفارقة، وأحبطت قدراتهم، وحطمت طاقاتهم بحيث لا تقدر على مقاومة أو نضال، الأمر الذى عجّل بسقوط القارة ضَحِّية لأولئك المستعمرين حتى أصبحت إفريقيا كلها فريسة للإستعمار الأوروبى خلال الربع الأخير من القرن التاسع عشر. الذى اتبع فى سبيل استعماره للقارة مجموعة من الأدوات والوسائل يأتى فى مقدمتها التبشير:

وهو السلاح القوى الذى استعمله الكافرون للقضاء على الوحدة الإسلامية التى تجمع آمال الشعوب الإسلامية، وتؤلف بين قلوبهم.

لذلك صار هو الأساس الذى اتّبعه الأوروبيون للتأثير الروحى والفكرى على الأفارقة بتقديم المسيحية لهم: خاصة وأن المبشرين المسيحيين يعرفون الكثير عن الإسلام، وقد قرأوا فيه وتعلموا عنه، لمهاجمته والتطاول عليه من خلال هذا التعرف المنحرف.

وقد اشتركت أكثر الأمم المسيحية فى نشر مسيحيتهم (المُنْحرِفة والمحرَّفَة) فالكاثوليك وفى مقدمتهم (بلجيكا، وفرنسا، والبرتغال، وألمانيا، وإيطاليا، وأسبانيا) والبروتستانت والأرثوذكس: (بريطانيا، سويسرا، ألمانيا، وأمريكا).

جميعهم قد عملوا على نشر المسيحية التى تخدم مصالح دولهم، وعملت كل دولة برؤيتها الخاصة من أجل مصالحها الخاصة، إلاّ أنهم جميعا يحكمهم التعصب الدينى الممقوت الذى لا يتفق وعادات التسامح عند الوثنيين الأفارقة أثناء هذا الزحف الصليبى جنوب المتوسط.

ولقد ترك التعصب الدينى الأعمى بذوره على من اعتنق المسيحية من أبناء القارة، ويتحقق الدارس أو الباحث فى شأن إرساليات التبشير فى إفريقيا أن نجاحًا

لتلك البعثات فى مهامها الدينية لم يحدث، كما أنها لم تتمكن من جذب الأفارقة نحو عبادة الصليب.

الأمر الذى تعين معه بالضرورة التعاون المطلق والمباشر بين البعثات التبشيرية والسلطات الإستعمارية عن طريق الحوار المباشر بين الجانبين، وقد نتج عنه أن تلك البعثات أُنيط بها حق إدارة التعليم والصحة، وهما القطاعان الأساسيان والمؤثران فى جلب واجتذاب ألوانا من البشر يمكن التحكم فيها والسيطرة عليها، وتوجيه عقولها بسهولة ويُسر، يأتى فى مقدمتهم؛ هذا المريض الضعيف المحتاج إلى الإبتسامة والأمل والذاد والدواء، وهذا الطفل فى المدرسة الذى يكتسب بالمران والتعلم مبادئ دين جديد لا يعرفه إلاّ أن طقوس هذا الدين تُمارَسُ على أعينه يوما بعد يوم حتى يعتنقها، وإن أبى يتم استبعاده (فصله) نهائيًا من التعليم.

كما استخدم الإستعمار أدوات أخرى مثل إغراء الأفارقة بالوظائف، وقيادات القبائل والعشائر بالمال والجنس ووسائل التشجيع، فضلاً عن نفوذ الإستعمار وسطوته وقسوته وجبروته.

ومن هنا يتمكّن الدارس أو الباحث أو المحقق من التعرف على الأسباب الجوهرية التى حملت المسيحية لفريق من الأفارقة.

ويأتى التبشير فى طليعة الوسائل والمسالك التى اتبعها أو سلكها الإستعمار لمحاربة الدين الإسلامى وللحيلولة دون قيام امبراطورية إسلامية أو دولة إسلامية عظمى طبقًا لما صرح به قادتهم، وفى مقدمتهم القس «سيمون» الذى قال (إن الوحدة الإسلامية تجمع آمال الشعوب الإسلامية، وتساعد على التملص من السيطرة الأوروبية من أجل ذلك يجب أن يحوّل بالتبشير اتجاه المسلمين عن الوحدة الإسلامية)[١].

ويمكن القول أن التبشير من أقوى الأسلحة وأخطرها لما يحتوى عليه من مخاطر جمّة صرفت أنظار المسلمين إلى قضايا خلافية جدلية جعلت فرقا كاملة من علماء المسلمين ومن أبنائهم يرددون ما ذكر الغرب الصليبى طعنا فى القرآن الكريم وإن كان ذلك منهم بطريق غير مباشر. إلا أنه ترديد لما قاله الغرب من أقوال وما أكد عليه من أفعال من ذلك ما قال المبشر تكلا : (يجب أن تستخدم القرآن، وهو أمضى سلاح فى الإسلام ضد الإسلام نفسه، حتى نقضى عليه تماما، يجب أن نبين للمسلمين أن الصحيح فى القرآن ليس جديدا، وأن الجديد فيه ليس صحيحا[٢].

---

(١) الخائفون من الإسلام – لماذا ص١٣ – محمد نعيم ياسين.

(٢) التبشير والإستعمار ط ثانية ص ١٤٠.

أما صموئيل زويمر رئيس مجلس الكنائس العالمى فقد قال فى كتابه الغارة على العالم الإسلامى على الصفحة الحادية عشرة: «أن للتبشير بالنسبة للحضارة الغربية مزيتان، مزية هدم ومزية بناء، أما الهدم فنعنى به انتزاع المسلم من دينه لو بدفعه إلى الإلحاد، وأما البناء فنعنى به تنصير المسلمين إن أمكن ليقف مع الحضارة الغربية ضد قومه».

ويقول القس سيمون: إن الوحدة الإسلامية تجمع آمال الشعوب الإسلامية وتساعد على التملص من السيطرة الأوروبية، والتبشير عامل مهم فى كسر شوكة هذه الحركة، من أجل ذلك يجب أن تحول بالتبشير اتجاه المسلمين عن الوحدة الإسلامية(١).

وجاء فى كتاب التبشير والإستعمار على الصفحة الثامنة قول مؤلفه المبشر تكلا: شارحًا برنامجه للواجب فعله أو اتّباعه لتحقيق نظريته الخاصة فى محاربة الإسلام والقضاء على القرآن حيث قال (يجب أن نشجع إنشاء المدارس على النمط الغربى العلمانى، لأن كثيرا من المسلمين قد زُعزع اعتقادهم بالإسلام والقرآن حينما درسوا الكتب المدرسية الغربية وتعلموا اللغات الأجنبية).

وانسجاما مع هذه الأفكار أو نتاجا لها فيما يُعد تعبيراً صريحا عن أنها تَسير وفق خُطىً متدرجة ومترابطة سواء فى حضور إدراك أو فى غيبة وعى وانتباه خرج من بيننا من إخوة ديننا، بنى أوطانه من يتبنى نظريات الغَرْب ومستحدثاتهم، وبدعهم ويدافعون عنها، ويزيد من الطين بلة رفض هؤلاء المطلق لغير ما تعلموا عنهم أوقرأوا لهم.

من ذلك مثلا: ما روج له أصحاب نظرية دوران الأرض التى باتت الشغل الشاغل للعالم بعد أن نجح العلمانيون فى وضعها بؤرة الإهتمامات ومركز الأبحاث، والمسلمون وغيرهم منذ أكثر من نصف القرن من الزمان يشتغلون بالبحث فى نظرية دوران الأرض أو ثباتها، وما إذا كانت تدور حول الشمس أم لا؟ وهل هى تدور حول نفسها ... إلخ. وقد اكتظت امناهج الدراسية واهتمت الوسائل التعليمية، وشَمَّرَ أصحاب النظريات والتطبيقيون عن سواعدهم منذ عشرات السنوات للخوض فى هذا المجال على الرغم من أن القرآن الكريم قد حسم هذه القضية الخلافية حين قوله تعالى:

﴿ وَآيَةٌ لَّهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ * وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَلِكَ

(١) قادة الغرب يقولون ص ٥١.

تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ * وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ * لا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾

[يس : ٣٧–٤٠]

وهذه آيات يسوقها الله جل وعلا ليبرهن لأصحاب العقول الضالة على دلائل قدرته، وليزداد الذين آمنوا إيمانا، والإستدلال هنا حادث بذكر أحوال الزمان الكلى (الليل والنهار) لإرتباطه بذكر أحوال المكان الكلى (وهو الأرض) حيث العلاقة طردية بين الزمان والمكان ومناسبة أتم المناسبة كما قال تعالى : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ ﴾ [فصلت : ٣٧]، وفيه دليل بيّن يوجب الشكر ممّن آمن والتذكر ممن يرتاب لقوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴾ [الفرقان : ٦٢] .

ولكن ما معنى نسلخ النهار من الليل؟(١)

يقال انسلخ النهار من الليل إذا أتى آخر النهار، ودخل أول الليل، وسلخه الله منه فانسلخ هو منه، وأما إذا إستعمل بغير كلمة [من] فقيل سلخت النهار أو الشمس فمعناه دخلت فى آخره.

فإن قيل: فالليل فى نفسه آية فأيَّةُ حاجة إلى قوله: ﴿ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ ﴾ نقول: الشيء تتبين بضده منافعه ومحاسنه، ولهذا لم يجعل الله الليل وحدهُ آية فى موضع من المواضع إلا وذكر آية النهار معها.

وقوله: فإذا هم مظلمون – أى – داخلون فى الظلام، وإذا للمفاجأة – أى – ليس بيدهم بعد ذلك أمر، ولا بُدَّ لهُم من الدخول فيه.

وقوله تعالى: ﴿ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ﴾ .

أقول بأن الواو هنا للعطف – فكل الآيات معطوفة، كما قال تعالى : فى سورة مريم (فنفخنا– .. فحملته – .. فانتبذت ... فأجاءها .. فناداها من تحتها) والفاء ههنا للتعقيب فى كل المواضع.

أما الواو الواردة فى قوله تعالى (والشمس) فهى للعطف كما تحكى الآيات وآية لهم الليل نسلخ منه ... والشمس تجرى ... والقمر قدرناه منازل – فهى بذلك كلها آية، وقد أشار تعالى إلى سبب سلخ النهار بذكر الشمس التى تجرى فى قوله تعالى : ﴿ وَالشَّمْسُ تَجْرِي ﴾ .. إذ أن جريان الشمس لمستقر كان لها فهو قدرٌ ليأتى الغروب

---

(١) مفاتيح الغيب ج١٣ ص١٢١ .

فينسلخ النهار ويدخل الليل فإذا هم كما قال تعالى: ﴿مُّظْلِمُونَ﴾، وفي هذا إشارة عظيمة لتدارك نعمة الله تعالى على خَلقه لقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا * وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا﴾ [النبأ: ١٠-١١].

أما اللام في قوله تعالى [لِمُسْتَقَرٍّ][1].

يُحتمل أن تكون للوقت كقوله تعالى: ﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ﴾ [الإسراء: ٧٨] وقوله تعالى: ﴿فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾ [الطلاق: ١].

وعندي: المستقر هو يوم القيامة وفيه المستقر والمستودع والسكون فلا يبقى حركة لأن حاصل الحركة ينعدم النفع به يومئذ، فهي على هذا المعنى تجرى في فَلَكٍ شاء الله لها أن تجري فيه كيف شاء تعالى لها حتى يأتي يوم تكويرها وطرحها كما قال تعالى: ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ * وَإِذَا النُّجُومُ انكَدَرَتْ﴾ [التكوير: ١-٢]. والتقدير أنه يوم القيامة.

أما قوله تعالى: ﴿وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ﴾.

قال الزمخشري[2]: لابد من تقديم لفظ يتم به معنى الكلام لأن القمر لم يجعل نفسه منازل، فالمعنى أنا قدرنا سيره منازل - أي مسالك - ومدارات حتى عاد كالعرجون القديم - أي - رجع في الدقة إلى حالته التي كان عليها من قبل، والعرجون من الإنعراج: يقال لعود العزق عرجون، والقديم المتقادم الزمان، وقيل إنّ ما غَبَرَ عليه سنة فهو قديم.

لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر.

إشارة إلى أن كل شيء من الأشياء المذكورة خُلق على وفق الحكمة، فالشمس لم تكن تَصْلُح لها سرعة الحركة بحيث تُدرك القمرَ وإلا لكان في شهر واحد صيف وشتاء فلا تُدرَكُ الثمارُ.

وقولُه تَعَالى ولا الليل سابق النهار: قيل في تفسيره إن سلطان الليل وهو القمر ليس يسبق الشمس وهي سلطان النهار.

وقيل معناه ولا الليل سابق النهار - أي الليل لا يدخل وقت النهار - والثاني بعيد لأن ذلك يقع إيضاحًا للواضح، والأول صحيح، وعند غروب الشمس يطلع القمر وعند طلوعها يغرب القمر، كان لها حركة واحدة مع أن الشمس تتأخر عن القمر في ليلة مقداراً ظاهراً في الحس، فلو كان للقمر حركة واحدة بها يسبق الشمس

---

(١) مفاتيح الغيب ج١٣ ص ١٢٣.

(٢) مفاتيح الغيب ج١٣ ص ١٢٥.

ولا تدركه الشمس، وللشمس حركة واحدة بها تتأخر عن القمر ولا تدرك القمر، لأن حركة الشمس كل يوم درجة، فخلق الله تعالى فى جميع الكواكب حركة أخرى غير حركة الشهر والسنة، وهى الدورة اليومية، وبهذه الدورة لا يسبق كوكب كوكبا أصلا، لأن كل كوكب من الكواكب إذا طلع غَرُب مُقابِلُهُ، وكلما تقدم كوكب إلى الموضع الذى فيه الكوكب الآخر بالنسبة إلينا تقدم ذلك الكوكب فبهذه الحركة لا يسبق القمر الشمس.

فتبين أن سلطان الليل لا يسبق سلطان النهار فالمراد من الليل القمر ومن النهار الشمس، فقوله تعالى: ﴿**لا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ**﴾ إشارة إلى حركتها البطيئة التى تتم الدورة فى سنة.

وقوله تعالى : ﴿**وَلا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ**﴾ إشارة إلى حركتها اليومية التى بها تعود من المشرق إلى المشرق مرة أخرى فى يوم وليلة (وفى هذا مسائل)(١) وقد قُلنا سابقا أن العرب الأُوَل ومنذ زمن الجاهلية، برعوا فى علوم الفلك والنجوم والرياح وعبروا البحار شرقا وشمالا وغربا، وتوصلوا كذلك إلى تحديد ما يُسمى خطأ الكواكب السبعة، وذلك لأن الشمس نجم ضخم يُشع نوراً وناراً وهى جسم ملتهب بذاته، أما القمر على سبيل المثال فهو جسم معتم يعكس أشعة الشمس التي تَصِلُه منها – فهو جسم صخرى صلب فثمة فارق بين (الكواكب والنجوم).

حتى وإن اكتشف المحدثون كواكب أخرى فى العصر الحديث فإنها كلها سيارة (سابحة) فى فلك خاص لها.

أما عن حركة الليل والنهار والشمس والقمر، فإن ظاهر الآية يُشير إلى أن الكل يسير فى فلك واحد. وإن كان المعنى الحقيقي غير ذلك تماما. إذ لو كان كل هؤلاء يسبحون بأسلوب منظوم فى فلك واحد فى حركات متتابعة متناسقة لما كان طول الليل وقصر النهار شتاء فى النصف الشمالى من الكرة الأرضية مع مقابلة ذلك تماما فى النصف الجنوبى وعكس ذلك تمامًا فى فصل الصيف. ولما حدثت كذلك ظاهرتى الكسوف والخسوف لأن ذلك كله ناتج عن تعارض واختلاف طبقا لقانون محكم أبدعه الذى على العرش استوى – أى – أن كل واحد يسير فى الفلك الذى قُدّر له السيرُ فيه وفق قانونِ الله ومشيئته ومعناه أن حركة الكواكب على هذا الوجه هى كما قال تعالى: ﴿**وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ**﴾ أى كل جرم سماوى (نجم أو كوكب) فى فلكه يسبح، ويجد المتدبر لآيات الله والحكمة أن القرآن الكريم تحدث عن حركة الليلَ

---

(١) انظر مفاتيح الغيب ج ١٣ ص ١٢٧ .

obeikandi.com

والنهار، والشمس والقمر، وجميعهم يعملون لتاهيل الأرض وإتمام جاهزيتها لاستقامة الحياة البشرية عليها.

وقد خلا القرآن الكريم من أية إشارة صريحة أو ضمنية من قَريب أو من بعيد تشير إلى دوران الأرض وحركتها رغم اشتغال العالم كله، ولهثه وراء هذا السراب المسمى (دوران الأرض) – وما إذا كانت تدور حول نفسها أو حول الشمس، أم الإثنين معًا.

بينما يُفيد خُلو القرآن الكريم من أية إشارة إلى حركة الأرض أو دورانها بأنها ثابتة لا تتحرك – ولو – كان غير ذلك لكان أولى بالذكر فى القرآن الكريم، وفى ذلك تصريح بثبات الأرض وانتفاء حركتها، لأن دوران الأرض حول نفسها وحول الشمس يعنى التأكيد على تعرض قطبي الأرض المتجمِّدين « الشمالى، والجنوبى » لمواجهة الشمس مدة فصل كامل من فصول السنة الأربعة أو نصفه على أدنى تقدير، وهى فترة كافية لذوبان جبال الجليد كله حال ما لو تعامدت الشمس على القطب الشمالي مثلا بدلاً من تعامدها على خط الإستواء.

هذا غير ما لو كانت الأرض هى التى تدور حول الشمس لكان ما كان من تعاقب الليل والنهار أكثر من مرة خلال اليوم الواحد أو أن تطول عدد ساعات طرف على حساب آخر أو أن يتساويا تماما بمقدار.

إن حركة الشمس ودورانها فى فلكها المعلوم، مع انحرافها للتعامد على مدار الجدى ليكون الصيف جنوبا يقابله الشتاء شمالا ثم تتعامد على مدار السرطان ليأتى الصيف شمالا ويقابله الشتاء جنوبا ثم ما يكون فى تعامدها على خط الإستواء ليتبادل الربيع والخريف على نصفى الكرة الشمالى والجنوبى على الضد. إن هذا لهو السبب الرئيسى فى تعاقب الفصول الأربعة، واختلاف حركة الرياح واتجاهاتها ومصادر هبوبها، وتعاقب الليل والنهار، وقِصَر هذا وطول ذاك.

أما الإشتغال بغير ذلك فإنه من أدوات العلمانيين وجمعيات التنصير (التبشير) التى لا تكل ولا تمل عن الطعن فى القرآن الكريم سراً وجهراً، كما يعمل هؤلاء باستماتة لشغل اهتمامات المسلمين بعيدا عن روح الإيمان المطلق والعقيدة الصادقة، ولصرف اهتماماتهم نحو اللهو فى قضايا خلافية جدلية عديمة النفع عاجلا أم آجلا – كأن نبحث مثلا فى (الدجاجة أولاً أم البيضة) والخوض فى قضايا خلافية لا تسمن ولا تُغنى من جوع، وموضوعات العلم بها لا ينفع والجهل بها لا يضر.

لقد نجح هؤلاء فى جعل العالم يردد كلمة « جرينتش » للتعبير عن خط الطول الذى ينصف الكرة الأرضية بحسب زعمهم – ماراً بلندن عاصمة الإنجليز – وهو في أصله فكر عربى قرآنى إسلامى لأنه يقسم العالم مروراً بمكة المكرمة لقوله تعالى : ﴿ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ﴾ [الأنعام : ٩٢] فهى بذلك مركز الأرض ووسطها إن هؤلاء لن ينتهوا عن سعيهم فى تنصير المسلمين، ومغايرة القرآن الكريم بعد أن درسوه وعرفوه وتدبروه، فى وقت أعرض فيه عنه أصحابه وأهله، فانصرفت عنه عقولهم وأفئدتهم فلاتدبر ولا إدراك ولا إبداع. بينما يهمهم الإنتفاع بمنتجاتهم الخبيثة، ونظرياتهم التى تطعن فى القرآن الكريم، وأكرر ما قاله المبشر تكلا (يجب أن نبين للمسلمين أن الصحيح فى القرآن ليس جديدا، وأن الجديد فيه ليس صحيحا).

* * *

خامساً : القلاع الأضادية

بذل الصليبيون والمستعمرون جهداً جبارا فى القارة السمراء حتى تمكنوا من تحويل الحبشة (إثيوبيا) إلى حصن كبير فى منطقة القرن الإفريقى وتَحَقق للأوروبيين حلمهم الكبير فى إقامة قلعة صليبية فى إفريقيا فى مواجهة قلعة المسلمين فى مكة المكرمة .

ويشهد التاريخ أن مصر كانت قلعة الإسلام فى منطقة القرن الإفريقى كاملة منذ دخل الإسلام تلك المنطقة وحتى العصر الحديث.

وقد لعبت الحبشة دوراً كبيراً ضد الإسلام فى منطقة القرن الإفريقى، وشرق إفريقيا، وأشعل حكامها حروبا أجمع المؤرخون على تسميتها (الحروب الصليبية فى شرق إفريقيا). إلا أنّها مُنيت بانتكاسة كبيرة وتعقدت أمورها كثيراً بعد أن تغلغل الإسلام فى السودان ومع ظهور دولة « الفونج » الإسلامية التى حَظيت بدعم مصرى كبير حتى أصبحت قوة لا يستهان بها، وباتت تمثل شوكة فى ظهر دعاة الصليبية خاصة مع زيادة كثافة الوجود المصرى فى السودان وإفريقيا، والذى يمثل عمقا أمنيًّا وسياسيا واقتصاديا لمصر منذ عهد الأسر وحتى إجبار مصر على الإنسحاب من السودان.

ويمكن القول أن الإمبراطورية المصرية العظمى فى عصر محمد على باشا هى رائدة حركة التنوير الإسلامى فى القارة السمراء.

وكان محمد على قد انطلق نحو إقامة امبراطوريته العظمى انطلاقًا من زحفه على السودان الذى قصد به متابعة فلول المماليك التى لجأت إلى السودان، والقضاءِ

عليهم كما كانت لديه رغبة قوية فى القضاء على مثيرى الشغب من العسكر الألبانيين، كما يذكر التاريخ أن «محمد على باشا» كان شديد الطمع فى الزحف على السودان للبحث عن الذهب كى يتمكن من الإستمرار فى مشروعاته التوسعية نحو بناء مصر العظمى.

وعلى الرغم من بعض الصعوبات التى لاقاها محمد على فى تحقيق طموحاته الشخصية مثل انعدام فيض الذهب على خلاف ظنه، وتَنَكُّرِه للجنود السودانيين الذين حلوا محل الجنود الألْبان فى الجيش المصرى، إلا أنه ظل يتقدم فى مسيرته نحو الداخل السودانى بعد نجاح إبنه «اسماعيل باشا» فى فتح شمال السودان، وإخضاعه للسيادة المصرية فى المدة من ١٨٢٠ : ١٨٢٢ .

وفى إطار سياسته الرامية لإقامة مصر العظمى نجح «محمد على» فى إخضاع جزيرة كريت اليونانية للحكم المصرى فى الفترة من ١٨٢٤ : ١٨٤٠ بالإضافة للعديد من المدن اليونانية.

وفى العشرين من أكتوبر ١٨٢٧ تلقى «محمد على» ضربة قاصمة من الأساطيل الحربية (الإنجليزية، الروسية، الفرنسية) حيث قصفت تلك الأساطيل غدراً وعمداً الأسطولين المصرى والتركى، وهو انتصار حقير رخيص فيما عُرِفت موقعة ناڤارين (نوارين) وهى مدينة ساحلية يونانية، وبعد شهور قليلة اضطر «محمد على» للإذعان لموقف الدول الأوروبية الداعمة للموقف اليونانى الثائر فى سبيل طرد القوات المصرية – فَقَبِلَ «إبراهيم» إبن محمد على مُكْرهًا الإنسحابَ من المدن اليونانية على سفن الأسطول الفرنسى بعد أن تم القضاء على الأسطولين المصرى والتركى تمامًا والإستيلاء على ما نجا من القصف والتدمير.

وفى العام التالى مباشرة: شرع محمد على بتأسيس الترسانة البحرية بالإسكندرية فى محاولة مصرية جادة لإعادة بناء الأسطول المصرى من جديد وقد كان ذلك فعلا حيث تم افتتاحه عام ١٨٣١، وهو العام الذى قام فيه «إبراهيم باشا» بقيادة حملة عسكرية على سوريا فى أكتوبر، متذرعا بخلاف بين «محمد على – ووالى صيدا»، أما سببها الحقيقى كما ذكر المؤرخون فهو يعود إلى رغبة محمد على فى ضم سوريا لتأمين مصر ضد الغزو من جهة الشرق، وفى العام التالى تمكن إبراهيم باشا من إنزال هزيمة بالجيش العثمانى، وضم طرابلس الشرق إلى الإمبراطورية المصرية وتقدّم لحصار عكا.

وقد بدأ الخلاف فى ١٨٣٢ بين محمد على والباب العالى فى تركيا الذى أعلن عصيان محمد علىّ بسبب حملة إبراهيم باشا على سوريا، وفى ٢٧ / ٥ / ١٨٣٢ فتح إبراهيم باشا «عكا» بعد حصار برى وبحرى دام مدة ٦ ستة أشهر، ويذكر أن الجيش المصرى لاقى مقاومة عنيفة من حاميتها التى لم تستطع الصمود أمامه طويلاً، وفى السادس عشر من يونيو من العام ذاته استولى على دمشق ثم توجه إلى الشمال فتمكن من احتلال كوتاهية سنة ١٨٣٣ على بعد (٢٠٠) مائتى كيلو متر من الأستانة، واحتل كذلك «مجنيسيا» قرب أزمير التركية على الحدود المتوسطية.

ولما استشعر الأتراك الخطر المصرى القادم توصل السلطان العثمانى (محمود) إلى اتفاق مع محمد على باشا، قطع الطرفان فيه شوطا كبيراً من المفاوضات الشاقة خلال إبريل ومايو ١٨٣٣م ثم عقدا صلحاً بموجبه يتنازل الباب العالى لمحمد على عن «سوريا، وإقليم أضنة» ويثبته على «مصر والحجاز وجزيرة كريت»، مقابل جلاء الجيش المصرى عن باقى بلاد الأناضول فيما عرف صلح (كوتاهية).

وقبل مضى عام دخلت إنجلترا بلاد الشام من الباب الخلفى عن طريق تطبيع العلاقات التى أخذت طابعا سريا، استهدفت منه بريطانيا إضعاف الخلافة التركية[١] ذاتها بالإضافة إلى القضاء على الجيش المصرى، من أجل ذبح أحلام محمد على باشا فى التوسع فى امبراطوريته المصرية.

وسرعان ما ظهرت آثار تطبيع العلاقات «التركية – الإنجليزية» حيث ثار الشام ضد الحكم المصرى بسبب الدسائس التركية الإنجليزية لتقليب الشاميين وإثارة تمردهم، وربما إستثماراً لسياسة محمد على فى نزع أسلحة العشائر، ومحاولته فرض التجربة المصرية فى بلاد الشام بشأن التجنيد الإلزامى.

وقد إستمرت هذه الثورات منذ عام ١٨٣٤ : ١٨٣٨م. إلا أن إبراهيم باشا تمكن من قمعها جميعا، بعد أن وقعت خسائر كبيرة فى الجيش المصرى.

وما أن تمكن الجيش المصرى من إخماد الثورات الإنفصالية فى الشام والتى أكدت على إمكانيات العسكرية المصرية وقدراتها الجبارة، وقياداتها الواعية، حتى كشفت تركيا عن حقيقة نياتها تجاه مصر، بعد أن استغلت تماما فترة الهدنة التى عقدتها مع مصر بموجب صلح (كوتاهية)، حيث بات الأتراك منذ توقيع تلك المعاهدة فى ١٨٣٣ فى إعداد وتجهيز وتهيؤ تام للمعركة القادمة مع الجيش المصرى حتى جاء ٢٤ / ٦ / ١٨٣٩ وفيه تقدم الأتراك محاولين استرداد سوريا من أيدى

---

(١) انظر كتابنا: المؤامرة الكبرى علىّ العروبة والإسلام والإنسانية عبر مراحل التاريخ.

المصريين، والتقى الجيشان عند « نصيبين » وفيها أحرز إبراهيم باشا أكبر انتصاراته على الجيش التركى، وأسر أكثر من ١٢٠٠٠ « أثنى عشر ألفا » من بينهم، وأكد على تفوق العسكرية المصرية على الجيش العثمانى.

وقد توفى السلطان العثمانى قبل إبلاغه نبأ الهزيمة، وقد خلفه السلطان عبدالحميد فى العام ذاته ١٨٣٩م. وبعد ذلك بأيام قام (فوزى باشا) قائد الأسطول العثمانى بتسليم (٢٥) سفينة حربية عثمانية للأسطول المصرى لأسباب شخصية لم يذكرها المؤرخُون..

وبدأت المؤامرات الأوروبية على مصر فى العلن بعد أن تولى السلطان عبدالحميد أمور الخلافة الإسلامية فى تركيا للقضاء على الخلافة ذاتها وعزل الخليفة، ومن ثم تقسيم التركة العثمانية فى العالم العربى إلى مناطق نفوذ الدول الإستعمارية الأوروبية التى حاصرت العالم العربى والإسلامى منذ فترات سابقة، استعداداً للهجمة الشرسة على العالم الإسلامى كله حينما يحين الوقت أو تسمح الظروف.

وفى الخامس عشر من يوليو (١٥/٧/١٨٤٠) – اجتمعت بريطانيا والنمسا، وروسيا، وبروسيا (ألمانيا) فى بريطانيا وتم التوقيع فيما بينهم على ما يعرف (اتفاقية معاهدة لندن) وفيها فرضوا على محمد عَلِى الإنسحاب من الأقاليم المفتوحة لتقتصر حدود دولته على مصر وفلسطين على أن يرضخ لهذه الأوامر خلال عشرة أيام على الأكثر، وإلا تم عزله، غير أن محمد على رفض الإنصياع للإنذار الأوروبى عند أول الأمر، ولم يلبث أن قبل، مُقابِل جعل الحكم وراثيا فى أسرته لمصر فقط، وكانت هذه بداية النهاية.

وفى سبتمبر ١٨٤٠ قصف الأسطول الإنجليزى بيروت بالمدافع لإحراج موقف الجيش المصرى هناك بقيادة إبراهيم باشا، ثم بعد أيام قام الحلفاءُ الغربيون (أطراف معاهدة لندن) بمشاركةٍ تركيةٍ صريحةٍ بالإستيلاء على مدن الساحل الشامى بقوة أساطيلهم المتطوّرة.

أما فرنسا التى لم تحضر ولم توقع على معاهدة لندن سابقة الذكر، والتى كانت قد أبدت تعاطفا وتحالفا مع محمد على سراً، إلا أنها فى العلن امتنعت عن حضور مؤتمر لندن – وما كان ذلك منها إلا لونا من ألوان التآمر والخديعة لتحقيق المصالح الغربية أو لا وأخيراً. وقد خذلت فرنسا « محمد على » وتمنعت عن معاونته فى مواجهة الحلفاء، مما أجبر الجيش المصرى على الإنسحاب من سوريا فى الشهر الأخير من عام (١٨٤٠) وقد أصيب بخسائر فادحة أثناء الإنسحاب من جراء الهجوم الأوروبى، وكذلك من رغبة الشاميين فى الإنتقام.

وكانت تلك هى البداية للتدخل وبقوة فى الشئون الداخلية لمصر بصورة مباشرة، وتحميلها مبلغ (٤٠٠،٠٠٠) أربعمائة ألف جنيها مصريا كل عام فى سابقة هى الأولىّ من نوعها عبر تاريخ مصر الستحيق أن تدفع مصر « جزية » لدولة أجنبية، وذلك بموجب فرمان فرض الجزية فى أول يونيه ١٨٤١م.

جاء ذلك فى وقت كانت أوروبا فيه لا تدرى بعد ما النقود!!! ولم تكن كذلك بريطانيا تعلم كلمة « جنيه » كعملة رسمية.

وفى الثالث عشر من فبراير ١٨٤١م صدر فرمان يفرض على محمد على التبعية المطلقة وأمرته بتحديد قوات الجيش المصرى بثمانية عشر ألف (١٨٠٠٠) جندى، كما أقر الفرمان الإعتراف بمحمد على حاكما وراثيا على مصر.

أصيب « محمد على » والى مصر بالمرض لدرجة منعته من ممارسة مهام الحكم فتولى إبراهيم باشا أمور الولاية فى إبريل عام ١٨٤٨ لمدة سبعة شهور تقريبًا حيث وافته المنيّة مفاجئة فى ٩ / ١١ من نفس العام فى حياة أبيه.

وقد تولى (عباس باشا بن طوسون بن محمد على) الملقب (عبّاس حلمى الأول) حاكم الحجاز أمور الولاية بعد أن عاد من الحجاز إلى مصر فى ٢٤ / ١١ فى حياة جدهّ محمد على الذى وافته المنيّة فى الثانى من أغسطس ١٨٤٩م، بعد أن أرسى قواعد مصر الحديثة التى ترامت أطرافها، وأسس بنيانها، وقد مات حسرة وألمًا علي ضياع هيبتها وانحسارها فى حياته.

وبعد سنوات قليلة قُتل عباس حلمى الأول « والى مصر » فى ١٤ / ٧ / ١٨٥٤م. فى مؤامرة من مؤامرات القصور، وخلفه سعيد باشا بن محمد على فى العام ذاته واستمرار واليًا على مصر حتى وافتهُ المنية فى (١٨٦٣م) متأثرًا بمرض عُضال.

وفى عام ١٨٦٣ م أصبح « إسماعيل باشا » بن إبراهيم بن محمد على « واليا » على مصر، إلى أن صدر فرمان الباب العالى فى ١٨٦٧م ليصبح أول خديوى على مصر، وقد حصر الفرمان العرش فى أولاده فقط.

ومن الجدير بالذكر أنه بعد الهزائم المتتالية والإنتكاسات التى لحقت بالجيش المصرى فى اليونان وتركيا ودمشق وساحل الشام وما نتج عنها من آثار سيئة ونتائج سلبية على الإمبراطورية المصرية التى فقدت الكثير من أعمالها ومناطق نُفوذها. فقد عمل الخديوى إسماعيل على توسيع إمبراطورية جده محمد على، كما اجتهد للسير على دربه، غَير أنه اتّجه ناحية الجنوب فى فتوحاته، وتمكن الجيش المصرى عام ١٨٦٥م من احتلال (فاشودة) بجنوب شرق السودان، وسط ترحيب كبير وحفاوة

بالغة من أبناء تلك المناطق خاصة مع الإعلان المصرى بالقضاء على تجارة الرقيق فى الوسط الإفريقى كله ومحاربتها من الأصل، واجتثاث جذورها.

وفى عام ١٨٧١ م تمكنت مصر من ضم «غندكور» إلى أملاكها لتصبح عاصمة مديرية خط الإستواء الواقع تحت السيادة المصرية سلفاً.

وفى المدة من ١٨٧٢ : ١٨٧٣ م تمكن الجيش المصرى بقيادة بيكر باشا من احتلال مملكة (أونيورو) الواقعة شرق بحيرت (ألبرت)، وفى العام التالى وبموجب معاهدة سلمية مع ملكها بسطت مصر حمايتها على مملكة (أوغندا) بينما توجه فريق آخر من الجيش المصرى بقيادة اسماعيل باشا أيوب لفتح سلطنة دار فور غرب السودان. ثُمّ توجه الجيش المصرى إلي شرق الحبشة، وتمكن بقيادة «محمد رؤوف باشا» من فتح سلطنة (هرر) سنة ١٨٧٥م، ثم بدأ الجيش المصرى منذ ذلك التاريخ وحتى مشارفة عام ١٨٧٦م على الانتهاء من عدة محاولات لدخول الحبشة إلا أن جميعها قد فشلت بسبب تولى أموره قيادات أوروبية كان قد عينها الخديوى إسماعيل للعمل فى الجيش المصرى[١]. إلا أنهم تآمروا مع الإنجليز المساندين للحبشة ضد الفتح المصرى، خاصة وأن بريطانيا كان لها وجود فعلى فى الحبشة منذ حملتها فى ١٨٦٧ : ١٨٦٨م وقد انتهت بانتصار الإنجليز، وهزيمة الأحباش، وقتل ملكهم (تيودورس).

وفى عام ١٨٧٥م قامت حملة من الجيش المصرى بقيادة الضابط الأمريكى (شاولونج بك) على الصومال فى محاولة لفتح بقية الشاطىء الصومالى لبسط النفوذ المصرى على ساحل المحيط الهندى، استكمالا لما تم فى عصر محمد على باشا الذى استطاع قبل وفاته أن يستأجر (سواكن، ومصوّع) من السلطان العثمانى لأهميتهما فى تقديم العون، ولربط مصر بفُتوحاته، وقد تنازل العثمانيون نهائيًا لمصر على(سواكن ومصوّع) فى ١٨٦٥م، وفى ١٨٦٦م. تملكت مصر جميع الشاطىء الواقع على خليج عدن الجنوبى من «بربرة إلى رأس غوردا فوى» وفى عام ١٨٧٠م استولى الأسطول المصرى على ساحل البحر الأحمر حتى مضيق باب المندب وعلى بلاد الصومال، حتى مصب نهر جوبا، وفى عام ١٨٧٥ م حصلت مصر على «زيلع» من الباب العالى، وامتد النفوذ المصرى إلى الساحل الجنوبى فشمل «مقدشو» حتى نهر جوبا.

---

(١) بلغ عدد القتلي من الجنود المصريين ٨٥٠٠قتيلاً فى هذه السلسلة من الحروب الفاشلة.

غير أن الحملة التى قادها الضابط الأمريكى للاستيلاء على ساحل المحيط الهندى أخفقت فى أهدافها نتيجة تعرضها لبعض الصعوبات خاصة مع الوجود الإنجليزى المكثف فى القرن الإفريقى، إلا انه نَجَح فى وقت لاحق من نفس العام فى الإستيلاء على (زيلع وبربرة) بشمال الصومال .

غير أن الخديوى إسماعيل غرته فتوحاته وانتصاراته وذهب يطلب أمجاد جده محمد على باشا، لذلك سرعان ما وافق على إرسال (٧٠٠٠) مقاتل مصرى بقيادة الفريق راشد باشا للمشاركة مع الجيش العثمانى فى القتال لإخماد التمرد الصربى، وبعد شهور قليلة وافق الخديوى إسماعيل على إرسال فرقة عسكرية من إثنى عشر (١٢٠٠٠) ألف مقاتل آخرين بقيادة الأمير (حسن باشا) ابن الخديوى نفسه، للمشاركة إلى جانب تركيا ضد روسيا فى حرب البلقان فى المدة من ١٨٧٧ : ١٨٧٨م .

وقد نسى الخديوى إسماعيل أو تناسى أن أوروبا لن يرضيها الخسارة الروسية من الحلف الإسلامى (التركى – المصرى) خاصة أن روسيا هى الحليف القديم للإنجليز فى (معاهدة لندن) المشار إليها سابقا، بالإضافة إلا أن إنجلترا تعتبر أى هزيمة للروس هى انكسار للدور الصليبى الأوروبى، وانتصار يضاف للقوات المصرية. الأمر الذى يعنى تَعريض سلامة الأمن الأوروبى للخطر. وهو ما لَنْ تَسْمح به أوروبا، ثم إن مصر باتت خطرا يهدد الأطماع الأوروبية بالنسف والتدمير، لذلك باتت أوروبا تتآمر فى الخنادق المظلمة لتحجيم دور مصر بتطوير أدواتها ووسائلها لتنفيذ مخطط مرسوم بدقة يرمى إلى عزل مصر مستخدمة لذلك ثلاث وسائل خطيرة نوضحها إيجازاً فيما يلى :

(أ) الضغط بورقة السودان :

لعبت أم الإستعمار (بريطانيا) مبكراً دوراً سريا وخطيراً لعزل مصر عن إفريقيا منذ مطلع حكم إسماعيل، فى محاولة جادة من الإنجليز لإكراه « إسماعيل » على مثل ما أُكره عليه جده « محمد على باشا » من إجباره على التخلى عن الأراضى التى ضمها لإمبراطوريته فى الشام وإخراج جيوشه منها.

وبدأت فى ترتيب الأوراق الخاصة بالإستيلاء على مناطق النفوذ المصرى فى المناطق الإستوائية، والقرن الإفريقى – وقفزت سريعا فوق الأحداث الفعلية والرؤى النظرية، بمحاولة جادة لفصل السودان عن مصر، واتخذت لأجل ذلك سبيلاً خبيثاً داخل الجيش المصرى، حيث تحايل الإنجليز على الخديوى إسماعيل الذى لم يستطع رفض مطالبهم والمطالب الأوروبية، خاصة وأن هذه الحيل قد صادفت هوىً فى نفسه،

يتمناه كثيراً ويأمله بشدة كى يتمكن من (تأريب) مصر، والإستمرار فى عصر النهضة. والسعى بشدة لاستكمال المشروعات العملاقة، وبناء مصر الحديثة بعماراتها الفاخرة على الطراز الأوروبى.

وقد أدخل إسماعيل نظام عمل الأجانب بالجيش المصرى استرضاء أو استجداء لأوروبا على أمل تحديث قدراته العسكرية، والإستفادة بهم فى التوسعات المصرية صوب الجنوب.

وكانت تلك أول الأوراق التى لعبت بها أوروبا للتمهيد لعزل مصر، حيث أن الأجانب الذين تولوا مناصب قيادية بالسودان وهم تابعين لحكومة مصر لم يكونوا مخلصين لها، كما أنهم يخادعونها، وباتوا يعملون بجد واجتهاد على تمكين إنجلترا بوجه خاص من تحقيق رغباتها ثم تأتى بعد الرغبات الأوروبية بوجه عام.

ونورد فيما يلى نموذجاً للأجانب الذين استخدمتهم مصر فى السودان، وما قالوه، أو قيل فيهم :

● بيكر : كان كشَّافاً ورحَّالة، ولا تؤهله هذه الصفات للإدارة والسياسة، وقد أساء السيرة عندما استخدمته حكومة الخديوى فى السودان، وقد اعترف بيكر أنه وهو موظف مصرى فى عهد إسماعيل كان يعمل على تقوية النفوذ البريطانى فى المناطق التى عهدت إليه مصر بإدارتها، وأضاف أنه فخور بأن يخلفه غوردون فى هذا العمل، كما أنه كان يعمل جاهداً كى ينساب النفوذ البريطانى فى مصر، وحتى يتوغل فيما وراءها.

● مالكولم: كانت له السلطة على ممتلكات مصر بسواحل البحر الأحمر، وهناك عمل على بث النفوذ البريطانى فى شرق إفريقية .

● ماليكوب باشا: قائد فى البحرية المصرية، كان بعيداً كل البعد عن الإخلاص لمن أولوه هذه الثقة.

● هكس: عُيِّن على رأس حملة لإخماد ثورة المهدى فى الجنوب والتى اشتعلت فى عام ١٨٨١م : ١٨٩١، إلا أنّه قام بتصرفات ضد واجبه الوظيفى، وضد رغبات الحكومة المصرية التى عينته، وكان معه ثمانية من الضباط الإنجليز، واثنان من الخدم الأوروبيين، وقد أخذوا لأنفسهم كل الإمتيازات، وتركوا الأعباء والأعمال ملقاة على كاهل الضباط المصريين الذين أحَسُّوا بالخيانة من القائد ومعاونيه .

---

(١) توفى المهدى عام ١٨٨٥ وخلفه عبدالله التعايشى وقاد أنصاره المعروفين بالدراويش.

وكان « هكس » يُظهر علنا عدم احترامه للمصريين ولا يتحرج من ذلك، فقد كان رجلا حاد المزاج، غير مألوف النفس، لا يتمتع بشخصية سوية، فهو لا يريد الهدوء ولا يرغب في إخماد الثورة التي أُرسل في سبيل إخمادها، وإنما لم يتمنى القلق والإضطرابات والمزيد من التوترات فحسب بل كان يعمل على زيادة حدّتها.

وقد أصدر هكس بيانا إلى السودانيين تحدث فيه عن العدالة التي عرفت بها إنجلترا، وأنه كواحد من أبنائها يعلن لكل السودانيين أنه إنّما جاء إلى السودان لنشر العدل، والإنصاف بين الناس.

وهذا الـ.... هكس قد وقف ضد الدولة التي يعمل في خدمتها، وخالف بذلك حدود وظيفته الرسمية، ومارس أعمالا لا تتفق وطبيعة دوره العسكري، وقد نتج عن مسلكه هذا ازدياد حدة الثوار (الدراويش) ضد مصر.

● غوردون : وهو الشخصية الغامضة التي لعبت أكبر أدوار الخيانة في السودان، وقد عُيّن أول الأمر لتوسيع دائرة النفوذ المصري في منطقة الإستواء والتأكيد عليه.

وقد أساء استغلال وظيفته و انحرف عن طبيعة الدور المنوط به، فأرسى بذلك حجر الزاوية في الإساءة إلى العلاقة بين مصر والسودان بقسوته وسوء معاملته للسودانيين.

ومن العجيب أن يُعيَّن بعد ذلك حاكما على المنطقة الإستوائية، فحاكما عاما للسودان كله، ومن ثم بلغ الأقاصي في إساءته وسوء معاملته، للسودانيين، وفرض عليهم الضرائب الباهظة، واستعمل في جبايتها العصيّ والكرابيج، وأودع كثيرا من المواطنين بسببها في السجون وشرّد الكثيرين.

وفي إطار مساعيه الرامية لإحلال الأوروبيين محل السودانيين في الوظائف القيادية والعامة، أطاح بالقيادات الوطنية وأمر بتعيين (شينترز) حاكما لخط الإستواء، و(رومولو) الإيطالي حاكما في بحر الغزال، و(چيچلر) الألماني مفتشاً عاما للتليغراف بالخرطوم، و(سلاطين) النمساوي حاكما عاما على دارفور – بينما يبرز كتابه (السيف والنار) مدى الخيانة التي انغمس فيها.

وقد عبّر « غوردون » عن نفسه أصدق تعبير حين قوله (لا يوجد في العالم رجلٌ أكثر مني تغيُّراً) ، عنه « نور تبروك » (يا لشذوذ جوردون، وبالسرعة تقلبه في أرائه).

هذا بخلاف بعض الأشخاص الذين جنّدتهم بريطانيا للقيام على مصالحها، ولرسم استراتيجية مُعيّنَة لتنفيذ المخطط الذي تريده، وهؤلاء لم يتبعوا الحكومة المصرية

ولم يعملوا تحت لوائها ، ولم يأتمروا بأوامرها. وجميعهم من الإنجليز، من أهمهم(١):

● الميجر / هنتر: مساعد المقيم السياسى فى عدن، وقد ذكر فى برقياته للقاهرة عام ١٨٨٣ التى خاطب بها قيادة الإحتلال البريطانى فى مصر والذى بدأ فى ١٨٨٢م: أن قبائل الجالا تستعد للإستيلاء على هرر، وأن قبائل الصومال أعلنت أنها ستُخرج المصريين من (بربرة، وزيلع) وذهب إلى ما هو أبعد وأخطر عندما اهتم علنا بجمع التوقيعات من الأهالى ضد مصر، وأخذ فى ترتيب تصفية النفوذ المصرى على ساحل البحر الأحمر.

● الكولونيل / ستيوارت: رسول بريطانيا لدراسة الواقع السودانى، والإفادة بالتقارير الواقعة على أرض الأحداث.

ويذكر المؤرخون وشهود العيان أن التقارير والنصائح التى أنيط بستيوارت كتابتها، كان متفقا عليها وموحى إليه بها قبل إرساله للسودان، وعلى ذلك جاءت تقارير الرجل متمشية مع الرغبة البريطانية، متوائمة مع سياستها المعلنة منذ اليوم الأول لإرساله والقيام بمهام دوره هناك.

كما طالب بتخفيض القوات المصرية العاملة فى السودان وأكد على أن الباقى من هذه القوات كفيلة بفرض النظام والسيطرة على الأوضاع حال وضعها تحت قيادة حازمة وجادة، وهو فى الحقيقة يرمى إلى اصطياد عصفورين بحجر واحد (إن صح هذا التعبير) لأنه أولا لا يطالب بدعم إضافى من الجنود المصريين للسيطرة على الموقف، وقمع الثوار. مع علمه التام بأن دفع المزيد من الجنود إلى السودان سيجعل الأمور تحت السيطرة التامة، وسيحقق النظام والأمن، وهو مالا يريدهُ وثانيا: فإن رسائله وتقاريره توصى بوضع القوات الموجودة فى السودان تحت قيادة حازمة – أى – إنجليزية، ومن ثم فإنها ستحقق آمال الإنجليز، وأثنى فى تقاريره على الهدوء الذى يسود دارفور، غير أنه لم يذكر أن هذا الهدوء الذى يسود الإقليم بسبب شراسة السفاح النمساوى (سلاطين) حاكم الإقليم الذى قمع الأهالى وأذلهم، وألقاهم فى السجون أو شردهم، تماما كما يفعل الآن (بول بريمر) الحاكم المدنى الأمريكى على العراق، ومن سيخْلُفُه.

كما ذكر ستيوارت أن مصر لم تستطع أن توفر الأمن والرفاهية للسكان وتلك حجته التى بنى عليها مَطَالِبَهُ بشأن الإسراع فى عودة هذه الأقاليم إلي مشايخ القبائل، والقيادات المحلية.

---

(١) بريطانيون فى السودان ص ١٦٩ وما بعدها بتصرف.

وهكذا فقد جَاهَرَ المهدى زعيم الثورة بصراخه المدوّى بعد التجاوزات والإضطهادات، والمضار التى لحقت بالسودانيين من جراءَ دُخُول الأجانب للسودان، وتوليهم المهام القيادية، كما أعلن أن ما نزل بالسودان من مظالم ومصائب تقع تبعاتها على عاتق الحكومة المصرية لأنها استخدمت الأجانب والدخلاء وولتهم أمور العباد[١].

بذلك الوضع الجديد الذى خلقته سياسة الخديوى إسماعيل، أضحى السودان منطقة محايدة، وفاصلة بين الحدود الجغرافية والسياسية للقطر المصرى، وبين مناطق السيادة المصرية فى القارة السمراء.

* * *

(ب) الصليبية فى وجه الإمبراطورية

مما سبق ذكره يتضح بجلاء أن أوروبا لم تتمكن من الإتجاه نحو إفريقيا بهذه الضراوة والشدة إلا بعد انتصار المسيحيين على المسلمين فى أسبانيا، وإنسحاب المسلمين جنوبا إلى الشمال الإفريقى، وما لازمه من تحول الفاطميين نحو القاهرة.

وقد اتجه الأوروبيون (الصليبيون) المنتصرون إلى الديار العربية ومحيطها باعتبارها الطرف المهزوم والمطلوب سحقه بالكلية خاصة بعد تزاوج أقطاب المملكتين المسيحيتين فى أسبانيا (إيزابيلا، وفرديناند) اللذان قضيا على الوجود الإسلامى فى أسبانيا، ثم توسعا بأسبانيا لتضم إليها البرتغال قسراً، والكثير من دول الجوار الأوروبي، وقد سلّمت أوروبا للمسيحية بعد وقوع تلك الأحداث.

وفى الوقت الذى توجه فيه الصليبيون إلى الديار العربية كانت لهم شطحات أخرى باتجاه الغرب حيث (العالم الجديد) الأمريكتين، منذ أن اكتشف (كولمبس) سواحل أمريكا الوسطى فى ١٥٠٢م، ثم دورة ماجلان حول العالم من ١٥١٩ : ١٥٢٢م وهى ذات الفترة التي وصلت فيها البعثات التبشيرية المسيحية إلى المستعمرات الأسبانية فى الأمريكتين، وهو كذلك عصر إرغام شعوب القارتين على اعتناق المسيحية، وبعد نجاح تلك البعثات فى مهامها بدأ الغزو الأسبانى إلى أمريكا الوسطى يتدفق بوضوح فى المدة من عام ١٥٢٣ : ١٢٣٥.

ثم شرع البرتغاليون فى استيطان البرازيل سنة ١٥٣٢، وبحلول عام ١٦٠٠م أصبحت الإمبراطورية الأسبانية تضم أغلب مناطق أمريكا اللاتينية، وزحفت فرنسان نحو كندا فى ١٦٠٥، وأسسوا (نوفاسكوشيا)، وفى ١٦٠٧ أسس الإنجليز أول

(١) السودان المصرى الإنجليزى ص١٧ / الشيخ محمد القبانى.

مستعمرة مستديمة لهم فى أمريكا الشمالية فى (جيمستاون) بولاية فرچينيا ، وفى ١٦٦٤م تمكن الإنجليز من انتزاع « نيويورك » من أيدى الهولنديين، وفى ١٦٩٩ : ١٧٠٢م تمكنت فرنسا من الإستيلاء على « لويزيانا » بأمريكا الشمالية، وفى ١٧٦٣م تنازلت فرنسا لبريطانيا عن كندا بموجب صلح « باريس » الذى أنهى حرب السنوات السبع بين الإنجليز وفرنسا.

وفى ١٧٧٥م اندلعت فى « لكسنجتون » شرارة حرب الإستقلال بين الثوار الأمريكيين والجيش البريطانى حتى تم الإعلان عن استقلال الولايات المتحدة فى ١٧٧٦م، وصدر الدستور الدائم للبلاد فى ١٧٨٧م، وقد انتُخب « جورج واشنطن » كأول رئيس للبلاد بَعْدَ الاستقلال.

وكان الإستقلال الأمريكى بمثابة العصا الغليظة التى حطمت آمال الإستعمار فى القارة التى تحررت مبكراً ونهائيا من الإستعمار الأوروبى.

مما حمل الأوروبيون على التوجه إلى إفريقيا منذ ذلك الحين بعد انحسار أطماعهم عن أمريكا الشمالية، وقد بدأ التدفق الأوروبي المباشر إلى إفريقيا فى حوالى الربع الأخير من القرن التاسع عشر.

بيد أن الأمر لم يكن سهلا للأوروبيين لتحقيق أطماعهم الإستعمارية التوسعية حيث واجههم النفوذ المصرى الكبير الذى تغذيه الإمبراطورية المصرية العملاقة، التى هددت وإلى حد بعيد المصالح الغربية ببعثاتها التبشيرية وأطماعها الإستعمارية.

فلم يجد الأوروبيون بُدا من الأمر إلا تدمير هذه الإمبراطورية، وشرذمتها وتقطيع أوصالها، فاتجهت إلى الخديوى إسماعيل، وحاصرته بالديون التى تثاقلت عليه، حتى تمكن الإنجليز والفرنسيون من الإطاحة به ونفيه خارج البلاد فى ١٨٧٩م بعد انضمام تركيا إلى المؤامرة ضد مصر والخديوى، وقد تم تعيين ابنه محمد توفيق خلفا له.

وسرعان ما دبرت بريطانيا المؤامرة الكبرى بحيلة ومكر لإحتلال مصر، بعد زوال حكم إسماعيل، وسعت بكل ثقلها لانتصار الثورة المهدية علي النفوذ المصرى.

ولما كان لها ما أرادت، اتجهت أوروبا لتجنى ثمار ما زرعته من أجل أقتسام التركة المصرية فى إفريقيا، وكان طبيعيًا أن تنفرد بريطانيا بنصيب الأسد من الوليمة حيث أنها صاحبة اليد العليا فى الإطاحة بالخديوى الذى ترمى من ورائه إلى ما يتخطى ذلك بكثير وهو ما نعرض له فى السطور القادمة .

(جـ) احتلال مصر

من الجدير بالذكر أنه فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر لم تكن أوروبا متوجهة ومهتمة لخطر الإمبراطورية المصرية الجديدة فى إفريقيا، والتى أسسها الخديوى إسماعيل، وذلك لأن ثورة الإهتمامات الأوروبية منذ وقت سابق كانت «الضغط» على محمد على لإخلاء السعودية، وكريت، وسوريا وهو ما حدث فى النصف الأول من القرن ذاته.

أما أن تحتل إفريقيا مكان الصدارة فى جملة الإهتمامات الأوروبية وتطلعاتها فإن مرد ذلك إلى مجموعة من العوامل من أهمها:

١- تطلع الإستعمار الأوروبى إلى إفريقيا لتعويض ما فقده فى الأرض الجديدة، خاصة بعد ثورة «لكسنجتون» الشهيرة التى أدت إلى وجود الولايات المتحدة الأمريكية.

٢- سرعة التحول الطارئ على الدولة الوليدة الجديدة لتصبح دولة استعمارية من طراز فريد فتتقدم صوب الجنوب لاحتلال دول الجوار وتغيير أنظمتها الشرعية[١].

٣- البحث عن المواد الخام والثروات الطبيعية لتمويل الثورة الصناعية فى أوروبا، ولإيجاد سوق بديلة لترويج المنتجات الأوروبية.

ومن الواضح أن الأطماع الأوروبية ما كانت لتتحقق فى ظل وجود الإمبراطورية المصرية التى توسعت كثيراً، وامتدت حدودها طويلا حتى بلغ نفوذها أعالى النيل، حتى باتت عقبة كؤود فى طريق الإستعمار الأوروبى لإفريقيا وسداً منيعاً أمام زحفه وأطماعه.

فوقفت أوروبا ضد مصر فى نصف القرن الثانى نفس الموقف الذى وقفته ضد محمد على سابقا فزحفت بريطانيا فى العلن نحو مصر، ففى الجمعة ١٩/٥/١٨٨٢م بدأت بوارج الأسطولين الإنجليزى والفرنسى فى الوصول إلى مياه الإسكندرية بحجة مُعلنَة «هى» إرهاب الضباط الوطنيين بمظاهرة (مناورة) بحرية، وتوجيه الأمور نحو الإستقرار فى مصر. ﴿إِن يَقُولُونَ إِلاَّ كَذِبًا﴾ [الكهف: ٥].

لأن ذلك فى حقيقته لم يكن إلاَ عملا فعليا لنيّة معقودة على التدخل الفعلى الأجنبى فى الشئون الداخلية لمصر ثم احتلالها فعليا من قبل القوات الإنجليزية.

وقد بدأ الأسطول البريطانى فى قصف الإسكندرية تمهيداً للغزو البريطانى فى ١١/٧/١٨٨٢م، وقد دمر القصف بعض أحياء الإسكندرية، وتحصينات الميناء، بينما

---

(١) التفاصيل كاملة فى كتابنا: وحيد القرن ورياح التغيير.

توجهت قطع أخرى من تلك الأساطيل باتجاه السويس التى سقطت مبكرًا فى ٢/٨/١٨٨٢م، وبورسعيد على إثرها فى ٢٠/٨/١٨٨٢م. أما الإسماعيلية فقد سقطت فى اليوم التالى ٢١/٨/١٨٨٢م.

تَقَدم البطل المصرى ناظر الجهادية والبحرية «أحمد عرابى» لملاقاة الغزو البريطانى الزاحف باتجاه الداخل، ودارت معْركة عند «تل المسخوطة» فى ٢٥/٨/١٨٨٢م بين القوات المصرية وجحافل الإنجليز، وفيها أُسِر «محمود باشا فهمى» رئيس أركان الجيش المصرى.

وفى ٩/٩/١٨٨٢م دارت معركة القصاصين الثانية، وكاد الجيش المصرى أن يحرز نصرًا كبيرًا على الإنجليز، وأن يلحق بهم هزيمة نكراء قاسية لولا وقائع الخيانة المتعددة – التى أدت إلى هزيمة القوات العرابية فى معركة «التل الكبير» فى ١٣/٩/١٨٨٢م، والتى على إثرها تمكنت بريطانيا من الزحف نحو الداخل ووصلت إلى القاهرة، وفرضت سيادتها فعليا على البلاد، وتم تعيين اللورد «دِفرين» مندوبا ساميا بريطانيا على مصر، وقد دخل مصر فعلا نوفمبر ١٨٨٢ م.

ولعل التاريخ يعيد نفسه حيث أن موقعة «التل الكبير» تتطابق تماما مع مقاومة الشعب العراقى البطل الذى أذل قوات التحالف بقيادة «أمريكا وبريطانيا» عند غزو العراق، وما كانت العاصمة بغداد لتسقط إلا بفعل الخيانة العظمى التى فتحت بغداد أمام القوات الأمريكية فجر التاسع من إبريل عام ٢٠٠٣م، وذلك لقاء حفنة من الدولارات[١]، ووعد بمناصب لم يتحقق منها شئ.

وجاء الضغط الإستعمارى على مصر بالغا الأشد والأقاصى.

ففى اليوم التالى لهزيمة القوات العرابية بفعل الخيانة، أى فى الرابع عشر من سبتمبر. أعلن الخديوى (محمد توفيق) ابن الخديوى إسماعيل الذى تولى الحكم بعد نَفْى والده فى ١٨٧٩م، وحتى أن مات توفيق نفسه فى ١٨٩٢م، أعلن عن إلغاء الجيش المصرى وتسريحه؛ على أن يعهد إلى السير (ڤالنتين بيكر)– الفريق بيكر باشا – بتنظيم جيش جديد – كبار ضباطه وقياداته من الإنجليز، ويحرم على القيادات المصرية العمل فيه، تماما كما تفعل أمريكا الآن فى العراق باستثناء الخائنين من العراقيين.

وبدأت بريطانيا على الفور برنامجا طموحًا يهدف إلى ضياع الممتلكات المصرية على البحر الأحمر، فطلبت من السلطان العثمانى فى تركيا أن يوافق على منح ميناء «مصوع الإريترى» لملك الحبشة، ءاستولت هى على باقى الموانى.

---

(١) التفاصيل كاملة فى كتابنا: وحيد القرن ورياح التغيير.

واستمرت بريطانيا فى حشد جهودها الرامية إلى تخلى مصر عن امتداداتها فى إفريقيا، وإجبارها على سحب جيوشها من كل المناطق التابعة لنفوذها، ومارست بريطانيا ضغطا هائلا على مجلس النظار المصرى (الوزراء) الذى أصدر أمرا بإجلاء القوات المصرية عن « هرر » وملحقاتها، ونقل السلطة هناك إلى الأسرة التى كانت تحكم قبل الفتح المصرى.

ومن العجيب أن بعض المسيحيين فى الجيش المصرى أرسلوا رسالة سرية إلى ملك الحبشة يخبرونه فيها أن الحاميات المصرية ستخرج من (هرر) فى فَترةٍ وجيزة، ونصحوه بالزحف عليها قبل أن تدخلها قوات أخرى.

غير أن مصر قامت بتسليم الإمارة إلى عبدالله بن عبدالشكور حفيد السلاطين السابقين عند دخول مصر، وطلبت منه بريطانيا وضع العلم البريطانى على بلاده للإعلان عن بسط نفوذها على هذه الإمارة باعتبار بريطانيا تحتل مصر ذاتها ، كما أنها الوارث الشرعى لممتلكات الإمبراطورية المصرية السابقة فى إفريقيا. فرفض الأمير ابن عبدالشكور الطلب البريطانى.

وفرض ذلك معطيات جديدة على الساحة، حيث وجدت بريطانيا أن التعاون البريطانى المسيحى أوفر عطاءاً، وأعظم أثراً من التعاون الإنجليزى الإسلامى الذى حتما سوف ينتهى بِصِدَام كبير، وقد نتج عن ذلك أن شجعت بريطانيا الأحباش للعمل بنصيحة المسيحيين المصريين (سابقة الذكر) بالزحف على هرر.

فزحفت الحبشة المسيحية على إمارة هرر الإسلامية ما بين عامى ١٨٨٦م، ١٨٨٧م بجيش كبير، واستولت عليها، وراح الأحباش تدفعهم أوروبا المسيحية لمزيد من الزحف على المناطق الإسلامية فاستولت من الصومال على مناطق (جالا، عروسه، أغادين).

وكان للدعم العسكرى الذى قدمه الأوروبيون للأحباش دوراً هائلاً فى قلب موازين القوى فى المنطقة بالإضافة إلى توقيع بعض الإتفاقيات الدولية بين الطرفين، لتصبح الحبشة قلعة مسيحية فى إفريقيا تقف فى وجه الزحف الإسلامى القادم من الشرق من قبل القلعة الإسلامية، وللتصدى لأى محاول مصرية للعودة إلى السودان، بل وتهديد أمن مصر القومى ذاته عن طريق إثارة الفتن والقلاقل فى الجنوب السودانى فى محاولة لتقسيم السودان، وإقامة دولة مسيحية فى جنوبه، وهو الفكر الأمريكى المحصن حديثا تحت شعار حق الجنوب فى تقرير مصيره.

وبذلك حصلت إثيوبيا (الحبشة) على تفويض غَربى رسمى وصكٍّ صريح للعبث فى المنطقة كيف شاءت بعد أن صنعها الإستعمار، وصاغها قلعة مسيحية تنتفع من الإستعمار وينتفع بها.

وتسابق المستعمرون نحو التركة المصرية فى الجنوب على النحو التالي :

- إيطاليا : استولت على إريتريا، والإقليم الشرقى بالصومال عام ١٨٨٥م والذى عُرِف فيما بعد باسم (الصومال الإيطالى).
- فرنسا : منطقة چيبوتى ، وميناء أوبوك (الصومال الفرنسى).
- بلچيكا : سارعت بإجراء تعديلات على حدود الكونغو مع دول جواره، واستولت بذلك على أجزاء من مناطق النفوذ المصرى هناك.
- الإنجليز: وقد تمكنوا من الإستيلاء على زيلع وبربرة فى ١٨٨٤م.

وقد تقاسمت بريطانيا وإيطاليا مناطق النفوذ المصرى فى السودان، وساحل البحر الأحمر فى ١٨٩١م حيث دخلت بريطانيا (زيلع، والإقليم الشمالى من الصومال، ومحمية أوغندة)، ثم استولت على السودان كله فى مراحل لاحقة بعد أن تمكنت من طرد الفرنسيين من غرب السودان.

ونؤكد فى هذا المقام على أن الإحتلال الإنجليزى لمصر مهّد الطريق وإلى حد كبير أمام الثورة المهدية، ويسر لها سبل النجاح خاصة وأن أحمد عرابى ناظر الجهادية آنذاك كان قد أصدر أوامره بسحب بعض الفرق المصرية من السودان للإنضمام إلى القوات المصرية لمواجهة التطورات الجديدة مما ألقى بظلاله على إضعاف الحامية المصرية هناك.

وبعد تنفيذ أوامر أحمد عرابى، اضطربت الأوضاع فى مصر بفضل انضمام بعض الجنود والضباط المصريين إلى ثورة المهدى فراراً من القتال مع الخديوى والإنجليز وأتباعهم.

وقد استطاع الثوار فى السودان محاصرة (الأبيض، وبارة) فى أغسطس ١٨٨٢م ورغم مقاومتهما بعض الوقت إلا أنهما سقطتا فى مطلع عام ١٨٨٣م، وبذلك أصبحت كردفان أغنى مديريات السودان تابع للمهدى ورجال ثورته، وسقطت الخرطوم فى ٢٦ / ١ / ١٨٨٥م، وانضم السودان الشرقى إلى المهدى عقب سقوط الأبيض.

وهكذا ضغطت إنجلترا على مصر وأصرت على ضرورة انسحاب القوات المصرية من السودان، وضغطت بشدة على الخديوى الذى ما كان له أن يفعل غير ما يَراهُ الإنجليز تفاديا لأن يلقى ذات المصير الذى لاقاه والده إسماعيل.

وبهذا انفصل المهدى بالسودان، وضاعت الإمبراطورية الكبيرة فى آسيا وإفريقيا، وتقوقعت فى حدود جغرافيتها المعروفة الآن... ويستمر الصراع محتدما بين القلاع الأضادية وسط خضم حِوَارِ الدبابات فى أشرس صراعٍ للحضارات.